ثقافة الاستسلام والجبن

يمكننا تعريف مصطلح الاستسلام والجبن بأنه تخلي الإنسان عن المقومات التي تجعل منه من الناحية الهيكلية الوجودية شيئاً متمايزاً، فإذا تخلى عما يميزه، أي تخلى عن الذات والهوية، واستسلم لشيء آخر يصنفه خارج ذلك الإطار، فهذا يعني الاستسلام.

كذلك يمكن وصف الاستسلام بأنه الانزياح الذي يقوم به الإنسان في مرحلة من حياته بما يجعله يخرج من لبوس إلى لبوس آخر.

والاستسلام كلمة غالباً تقال بالمفهوم السياسي المعروف عندما يذعن المهزوم إلى المنتصر، فهذا نوع من أنواع الاستسلام، لكن الاستسلام لا يأتي في الحرب وإنما هو كل ما يأتي بعد الحرب، فالحرب هي هزيمة أو نصر، لكن الاستسلام هو الذي يأتي دائماً بعد الهزيمة، أي هو التداعيات التي تأتي بها هذه الهزيمة على النفوس البشرية وعلى الثقافة وعلى كل المتغيرات المادية والمعنوية التي يعانيها المنهزم.

هذا المعنى السياسي للاستسلام انسحب على المعنى الثقافي؛ ويقصد به الاستسلام ضمن المفاهيم والمجالات الثقافية، وضمن بوتقة المفكرين والمثقفين، وهو تخلِّي الإنسان عما يميز هويته الثقافية والانزياح إلى ثقافة أخرى، وعليه؛ فإن المستسلم هو الإنسان الذي يستسلم لثقافة، أو يستسلم للغة أخرى، أو يستسلم لعالم آخر، فتبدو عليه هذه الملامح ليس فقط فيما ينضح به من سلوكات خارجية ومظاهر، بل هو أعمق من ذلك، إذ يتناول التغيير الكثير من البديهيات، ويستبدل بها بديهيات وحقائق من ثقافات أخرى، وهنا مقصد الكلام، وهذا مانعنيه نحن عندما نقول ثقافة الاستسلام التي تأتي بعد الانهزام.

فالانهزام إذن هو المرحلة الأولى للمفارقة التي يقوم بها الإنسان عند مقارنة

نفسه مع الآخر فيقول: أنا أمام هذه القوة العظمى.. أنا أمام هذه الثقافة... أمام هذه المرحلة... أنا منهزم... أنا لست قوياً.

من جهة أخرى نجد أن الانهزام هو مرحلة يأتي بعدها اتجاهان: فإما الممانعة والمقاومة، ومحاولة رفع الشأن، ومحاولة المضارعة والمصارعة، لكي يعتلي الإنسان بمقامه إلى مقام القوة، أو أنه يغلب عليه الواقع وما وصل إليه الحال فيتخلى عن ممانعته ويبدأ بالاستسلام، وهذا العمل مشابه لعمل الفيروسات التي تدخل الجسم وتهزم الخلية، ويصبح الجسم والخلايا يستجيبان لما تمليه عليهما هذه الفيروسات، لأن الفيروسات ليس هدفها الطعام أو الشراب وإنما التوالد، وهدفها تغيير بنية (الدي إن إيه)، وهذا مشابه تماماً لموضوع الانهزام والاستسلام.

بمعنى آخر هو تغييب الجوهر وتحويله إلى مصلحتها. إذن ثقافة الاستسلام تأتي بعد الانهزام، وتأتي بعد وصول الإنسان إلى خيارين، إما مقاومة وإما استسلام.

هذه الشعوب المنهزمة التي تعيش مدة طويلة في الانهزام ثم تحيا في الاستسلام، تطوِّر ثقافة خاصة بها يطلق عليها ثقافة الاستسلام، وبعضهم أشار إليها بالاستعباد، أو عقلية القطيع، أو نفسية العبيد، أو العقل الجماعي، أو إلغاء الفردية.

ويقوى أود هذه الثقافة مع مرور الأيام أو بعد أعوام طويلة حتى بعد زوال المسبب لهذا الانهزام، فقد زال المستعمر من بلادنا، ونحن الآن - في ظاهر الحال - أحرار يجب أن نتكلم بعقلية الحر، لكن عندما قمنا بهذه التجربة التي سجلناها في هذا الكتاب وجدنا أن بعض الأمثال التي تعكس العمق والبعد الزماني والمكاني لوجودنا على هذه الأرض لا تخلو من هذا الاستسلام، فالأمثال الشعبية، وبعض الحكايات والمقالات والأقوال التي نتداولها في بيوتنا وأحوالنا وبين بعضنا البعض، المثقفون منا وغير المثقفين، العارفون منا وغير

العارفين، تحمل الكثير من معاني الاستسلام، ونحن نتداول هذه الثقافة بقصد التسلية، والأبشع من هذا أن تكون موجودة داخلنا ونقلت إلينا من أجدادنا الذين عاشوا تحت نير الاستعمار أو الظلم أو الفقر أو الطغيان، فطوروا نتيجة لذلك لغة وتبنوا ثقافة يستطيعون من خلالها أن يمرروا الأيام، ويمضوا الحياة، فعندما يعيش الإنسان تحت ضغط معين يطور ثقافة معينة تتناسب مع الظروف المحيطة به وتعكسها.

هذا الأمر لا يقتصر على مجتمعنا؛ بل هو أمر عام له علاقة بالطبيعة البشرية ويمكن أن ينسحب على مجتمعات وثقافات أخرى، وأوضح مثال على ذلك لغة (الراب) التي يتكلم فيها الشعب الأفروأمريكي الذي هو جزء من المجتمع الأمريكي، والذي وقع في وقت سابق تحت ضغط العبودية والظلم، فطور لغة خاصة به لا يفهمها الأبيض، والهدف الأول منها: التواصل بين بعضهم البعض بعيداً عن الشخص الأبيض، والثاني: حفظ التراث جيلاً بعد جيل عمَّا واجهوه في سنين العبودية والظلم.

وهذه اللغة ما زالت حتى الآن تعيش بينهم وباتت ثقافة أكثر منها لغة.

نحن لا نختلف كثيراً في أمثالنا؛ فنتكلم بثقافة يعتقد البعض أنها أمثال أو حكم أو طرائف أو نوع من الكلام المشبع بالحكمة، ولا نعرف أنه مشبع بالخنوع والاستسلام.

قيل: "**الأولاد مجبنة**" (مجبنة أي هم سبب في جبن الآباء عندما يحارَبون بطعام أولادهم وأمنهم).

يقول عروة بن الورد:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

و قيل: "**العين ما بتقاوم مخرز**".

وكأننا نقول: إذا رأيت الأقوى فلا بد أن تستسلم إذ لا تستطيع المقاومة، وهذا الكلام جد غريب، ويجب أن ننظر إليه من باب التدقيق وإعادة الدراسة بتأنٍّ؛ لأن هذا الكلام يجب أن يقصى وآن الأوان بعد أن تحررنا وأصبحنا نعيش في عالم التكنولوجية الصغير أن ننهي هذه الأمثال، وبالأخص أن أجيالنا القادمة تعتقد فينا الخير وتأمل أننا نعطيهم الأحسن.

مثال آخر يقول: "**يلي بيتجوز أمي بصير عمي**".

وقيل: "**ألف كلمة جبان ولا قولة الله يرحمو**".

وقيل: " **العين بصيرة والإيد قصيرة**".

وقيل: "**موكاسر إيدي ورجلي إلا....**".

فهذا الكلام يحتاج إلى تمحيص وتنقية وفرز.

كل هذه الأقوال تعطي للطرفين، المستمع إليها والقائل لها، نوعاً من الجبن الذي ألبس ثوب الحكمة أو المثل الشعبي أو جو الواقع الغلاب، فإذا قلنا إن بعض هذه الأمثال يمكن أن يقع في زمان ومكان صحيحين مضبوطين بظروف خاصة جداً إلا أن كثرة تداولها بين الناس، والاستشهاد بها حتى في الأمور السخيفة التافهة، أدى إلى ترسيخ ثقافة نرجو أن يكون هذا الكتاب دعوة للتخلي عنها.

قيل في المثل: "**بمشي الحيط الحيط وبقول يارب السترة**".

وكأن هذا الإنسان لا علاقة له بأي ظروف أو تفاعلات خارجية، فالحياد عنده هو فلسفة قائمة بذاتها، وهو مؤمن بها.

قيل أيضاً: "**الهريبة تلتين المراجل**"، وهي تقال في كثير من الأحيان للتفكه، مع أنها تحمل معاني سلبية لا يستهان بها، ومثلها: " **بارود اهربوا**" أو قيل: "**الكترة غلبت الشجاعة**".

وقيل: " **يلي بخاف من الجنِّي بيطلعلو**".

أيضاً قيل: " **لا بفوت بين القبور ولا بشوف منامات وحشة**" (بفوت أي أدخل).

كذلك قيل: "**يامسمار شو فوَّتك بالحيط قال من كتر الدقّ على راسي**".

لنحاول ألا نكون كالمسمار، فمثل هذه الأمثال أعطيت هالة وهيبة المثال والحكمة الشعبية، لكن في الواقع هذه الهيبة هي ليست حقيقية، والوقار ليس صحيحاً، وإنما هي عبارة عن أقوال عرجاء، فالأصل بالإنسان ألا يكون جباناً وإنما مقداماً وشجاعاً ومغامراً لا يفكر بالخسارة إلا في بعض الأحيان ضمن شروط جد محدودة، ولكل منا دوره في هذا المفهوم وكل منا يعرف حدوده.

إن ثقافة الاستسلام هي إحدى الثقافات التي غالباً ما يحاول الطرف الآخر الأقوى، مهما يكن ذلك الطرف، شرقياً كان أم غربياً، تعزيزها لكي يضعضع ما نحمله بين جنباتنا، ويضعف أساساتنا بكل ما أوتي من قوة، ويورثها إلى أجيالنا القادمة لكي يسهل عليه عندما يعود إلينا بلبوس آخر أن يجد الساحة جاهزة له لاستقباله تحت عنوان مثل:

"**الأرض الواطية بتشرب ميِّتها وميِّة غيرها**" (ميتها أي ماءها).

وعندها يجد الإنسان ألف مقولة تشجع على مصافحة القادم وقبوله بخيره وشره، من منطلق هذه الثقافة دون أي تأن أو تمحيص أو نظر أو مقاومة.

ومن مفاهيم ثقافة الاستسلام أيضاً أن يقف مجتمع ما عند نقطة البين بين؛ فلا هو يذهب إلى الثقافات الأخرى، ولا هو يعود إلى ماضيه المجيد، فيصبح مثل أهل الفترة أو أهل الأعراف، لا يستطيع إعادة أمجاده القديمة، وفي الوقت ذاته غير قادر على الخروج إلى المستقبل، فالعالم يدور في عجلة سريعة لا نستطيع مجاراتها لأننا لا نمتلك أدواتها، وأيضاً لا نمتلك مقومات الماضي التي جعلتنا في يوم من الأيام مهد الحضارة وشمس المعارف، فنبقى بين بين ونصبح مستسلمين.

هذه العقلية أيضاً تؤدي إلى الاستسلام؛ إذ إنها مرحلة ما قبل الاستسلام،

وهي مرحلة الضياع وعدم الثبات، وهي الحالة التي نسميها مرحلة أهل الفترة؛ فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، جيل كأهل الأعراف، جيل يعيش ما بين التكنولوجية والعالم الصغير، وعالم الماضي وعالم الإيديولوجيات، والعالم الاقتصادي وعالم العولمة وعالم الشركات العابرة للقارات والأقمار الصناعية، وعالم ليس فيه شيء مخبأ على عين في السماء، كل هذه جعلت الأجيال تقف حائرة إلى أين؟ فهذا نوع من الاستسلام.

وبعد

لا تقوم المجتمعات القوية إلا على عقلية الند للند، ولقد قيل الكثير عن كتاب صدام الحضارات لصامويل هنتنغتون، وكثر بين المثقفين استخدام كلمة (صدام)، ولكننا نرى أن الحضارات لا تتصادم أبداً بل تتحاور، إلا إذا كان أحد الطرفين مستسلماً، فإن وجد هذا الطرف فعندها ليس هناك صدام ولا حوار، وإنما هناك احتلال وغزو ثقافي؛ لأننا نقول: الكتلة المتحركة ستطفو على الكتلة الثابتة، أما إذا كانت الكتلتان متحركتين فسيحدث دائماً ما يسمى بحوار بين الكتلتين ينجم عنه كتلة ثالثة، وهذا ما نريد أن نقوله؛ فالحضارات تتحاور فتنتج حضارة جديدة تحمل أفضل ما عند سابقتيها.

لقد أطلق المنادون بالنهضة العربية في مطلع القرن الماضي أسماء مختلفة على ثقافة الاستسلام؛ فسموها عقلية القطيع أو ثقافة العبيد أو التخلف أو الذل، وبعضهم شكك بأننا قد نحمل جينات الاستعداد إلى الاستسلام للآخر، وهذا غير صحيح؛ فحين يقال: "**العرب جرب**" ولو مزاحاً فهذا فيه الكثير من جلد النفس والإساءة، ونحن نرفض أن نصنف كذلك.

نعتقد أن هذا الأمر يحتاج إلى وقفة ومصارحة ذكية وواعية، ويكون ذلك بإعادة النظر إلى الحكم والأمثال التي نتداولها لكي نختار الأفضل منها.

الاستسلام لن يكون اليوم ولا غداً هو خيار الإنسانية، وإن كان خياراً فإنه خيار مرحلي زمني مؤطر جداً ومقيد بشروط خاصة، لكن يجب على الإنسان أن

يعرف تماماً متى ينفض عنه ثقافة الاستسلام لينهض من جديد ويعلي صوته ويقول للعالم: هأنذا إنسان كائن وموجود، فالفكر إذا بقي متقداً يبقى الوجود، وإذا استسلم الفكر أزال الإنسان ذاته.

لذلك نجد من الضرورة بمكان أن تقوم الأجيال الحالية بإنصاف الأجيال القادمة عبر تغذية ثقافة المقاومة والممانعة، أو ثقافة الحوار أو المجادلة أوالتمايز والاندفاع والتحفز، لأنه، ومع أن الله خلق الناس مختلفين في طباعهم وكل منهم ينتمي في ثقافته إلى البلد التي ولد فيها، لكنه سوَّى بيننا في أشياء كثيرة، فلا بد أن نعلم الأجيال أن تحاور وألا تستسلم.